الفصل الأول

ثقافتنا العربية الإسلامية

مكوناتها وخصائصها

- **عربية أم إسلامية؟**
- **مكوِّنات الثقافة العربية:**

الإسلام ـ اللغة العربية.

- **خصائص ثقافتنا:**

الربانية ـ الأخلاقية ـ الإنسانية ـ العالمية ـ التسامح ـ التنوع ـ الوسطية ـ التكامل.

obeikandl.com

عربية أم إسلامية ؟

في «المؤتمر التاريخي» الذي عقد في رحاب جامعة بيروت سنة ١٩٧٤م تحت عنوان «الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد» ، وكان لي شرف المشاركة فيه ، دار جدل طويل الذيول حول ماهية الحضارة المذكورة : أهي عربية أم إسلامية ؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام ؟ أهي صلة تكامل أم صلة تناقض ؟

وهذا الجدل يتجدد ويتكرر كلما تجدد الحديث عن ثقافتنا وحضارتنا ، وعن هويتها وانتمائها ونسبها : إلى أي أب تنتسب ، وإلى أي قبيل تنتمي ؟ إلى الإسلام أم إلى العروبة ؟ إلى العرب أم إلى المسلمين ؟

وزاد حدة هذا الجدل وجود تيارين غَلَوَا وتطرفا في النظرة إلى القضية : تيار الإسلاميين الذين يضيقون بالعروبة ، وتيار العروبيين (القوميين) الذين يتنكرون للإسلام .

ولو أنصف كل منهما ، ونظر في الأمر من جوانبه كلها ، لوجدوا أن لا غِنىً للعروبة عن الإسلام ، ولا معنى للإسلام بدون العروبة .

فالعربية هي لسان الإسلام ، ووعاء ثقافته ، ولغة كتابه وسُنّته ، والعرب هم عصبة الإسلام ، وحملة رسالته الأولون ، وهم الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ من أنفسهم ، ليتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ثم ينطلقوا في الأمم دعاة ومعلمين .

وأرض العرب هي أرض المقدسات الإسلامية ، فيها الكعبة البيت الحرام الذي جعله الله قياماً للناس ، ومثابة لهم وأمناً ، وقبلة لأهل الإسلام ، فحيثما كانوا ولّوا وجوههم شطره ، وإليه يحجّون ، وبه

obeikandi.com

يطوفون ، ومن حوله يسعون ويقفون وينسكون .

وفي أرض العرب مسجد النبي ﷺ ، ومثوى رفاته الشريف . وفيها كذلك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله .

فكل المساجد التي لا تُشَد الرحال إلا إليها في أرض العرب .

لهذا كانت العروبة وثيقة الصلة بالإسلام ، كما أن الإسلام موصول الرحم بالعروبة .

الإسلام هو الذي خلّد العربية حينما نزل بها كتابه العظيم ، وحدّث بها رسوله الكريم ﷺ ، وهو الذي أخرجها من الجزيرة ونشرها في الآفاق .

وهو الذي علّم العرب من جهالة ، وهداهم من ضلالة ، وأخرجهم من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والإسلام . فقد كانوا كما وصفهم الله تعالى في كتابه : **﴿وإِنْ كانوا مِن قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** [آل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢] .

وأي ضلال أبين من ضلال قوم فسدت عقائدهم وتصوراتهم ، وفسدت أخلاقهم وأعمالهم ؟

والإسلام هو الذي جعل للعرب رسالة يعيشون بها ، ويموتون عليها ، ويبذلون الأنفس والنفائس في سبيلها . وبهذا كانوا بالإسلام : **﴿خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجتْ لِلنَّاسِ﴾** [آل عمران : ١١٠] .

والإسلام هو الذي وحّد العرب من فُرقة ، وجمعهم من شتات القبلية ، وأكرمهم بنعمة الأخوة بعد نقمة العداوة ، وألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وجعل منهم «أمة» واحدة ، تواجه أعتى أمم الأرض ، بما لديها من دين تغالي به ، وحق تعتزّ بنصرته ، قال تعالى : **﴿واذْكُرواْ نِعْمتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُم أَعداءً فأَلَّفَ بَينَ**

obeikandi.com

قُلوبكم فأصْبَحتم بنِعْمتِه إخواناً وكُنتم علَى شَفا حُفرَةٍ مِن النّارِ فأنقَذَكم مِّنها﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وما أبلغ ما قاله الإمام قتادة بن دعامة السدوسي في بيان ما كان عليه العرب قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد : «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراه جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، مكعومين(١) على رأس حجر بين الأسدين : فارس والروم ، لا والله ما في بلادهم يومئذٍ من شيءٍ يُحَسدون عليه ، مَن عاش منهم عاش شقياً ، ومَن مات رُدِّيَ إلى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً يومئذٍ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظّاً ، وأرقّ فيها شأناً منهم ، حتى جاء الله عَزَّ وجَلَّ بالإسلام ، فورثكم به الكتاب ، وأحلّ لكم به دار الجهاد ووسع لكم به من الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين ، وإن أهل الشكر في مزيد الله ، فتعالى ربنا وتبارك»(٢) .

ولا غرو أن قال عمر بن الخطاب بحق لأبي عبيدة بن الجراح في رحلته إلى الشام ، حيث عرضت له مخاضة في الطريق ، فنزل عمر عن بعيره ، ونزع خفيه ، ثم أخذ بخطام راحلته ، وخاض المخاضة ، فقال له أبو عبيدة : لقد فعلت ـ يا أمير المؤمنين ـ فعلاً عظيماً عند أهل الأرض ! . . فصكّه في صدره ، وقال : لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ؟ أنتم كنتم أقل الناس ، وأذلّ الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله(٣) .

(١) كعم فم البعير وغيره : شدّ فاه لئلا يعض ، ومنه قيل : كعمه الخوف فهو مكعوم : أمسك فاه ومنعه من النطق .

(٢) من تفسير الطبري : ٨٧/٧ ، طبع المعارف .

(٣) ذكره الحاكم في المستدرك ، وسكت عليه هو والذهبي : ٨٢/٣ .

وقال عمر الثاني ـ ابن عبد العزيز ـ وقد قال له قائل بعد موقف من مواقفه المحمودة : جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين . فقال له : بل جزى الله الإسلام عني خيراً ! ! ![1] . فردّ الحق لأهله .

الحق أن الثقافة أو الحضارة التي نعتزّ بها ، وننتمي إليها ، ثقافة عربية إسلامية معاً . لا نقول هذا تملقاً للعروبة ، ولا مجاملة للإسلام ، إنما هي الحقيقة التي تدل عليها كل الأدلة .

هي ثقافة عربية ، بحكم اللغة الأساسية التي كتبت بها ، وعبرت عنها .

بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها ، المؤثرة في أعماقها .

بحكم تأثير البيان النبوي العربي والأسوة المحمّدية في مسيرتها .

بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها .

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها ، ومنطلق دعوتها .

وهي مع ذلك ، وقبل ذلك ، ثقافة إسلامية بلا ريب .

بحكم الأهداف التي تتوخاها ، والحوافز التي تدفعها .

بحكم الفلسفة والتصورات التي تحركها وتفجّر طاقاتها .

بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التي شاركت فيها عرباً وعجماً .

بحكم الرقعة الواسعة التي كانت مجالاً لها من الصين شرقاً إلى شواطئ الأطلسي غرباً .

فالأصوب ـ إذن ـ أن نقول : ثقافة عربية إسلامية ، وحضارة عربية إسلامية ، وبذلك ننصف الحقيقة ، وننصف العروبة والإسلام جميعاً .

ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندما نبيّن مكوّنات هذه الثقافة وخصائصها .

* * *

---

(١) ذكره ابن كثير في ترجمته من كتابه «البداية والنهاية» : ٢٠٩/٩ ، طبع بيروت .

مكوّنات الثّقافة العربية

أعتقد أن مكوّنات الثقافة - لدى كل أمة — واحدة ، وأهمها الدين ، واللغة ، والقيم والمفاهيم السائدة والمتوارثة . وبالنسبة لنا — نحن العرب ـ نجد أن مكوِّنات ثقافتنا هي : الإسلام والعربية ، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة على مدار التاريخ .

وسأكتفي بالحديث عن الاثنين الأولين : الإسلام ، والعربية :

١ـ الإسلام:

إن الدين هو المكوِّن الأول لثقافة الأُمة ، أيّ أُمة . فهو الذي يخط مجراه في تفكيرها وضميرها وأغوار وجدانها . وهو الذي يحدد لها فلسفتها الأساسية عن سر الحياة ، وغاية الوجود ، ويجيبها عن الأسئلة الخالدة التي فرضت نفسها على الإنسان في كل زمان ومكان : مَن أنا ؟ ومِن أين جئتُ ؟ وإلى أين أذهب ؟ ولماذا أحيا ؟ ولماذا أموت ؟

الدين هو الذي يجعل للإنسان هدفاً ورسالة ، ويجعل للحياة معنىً ومذاقاً ، ويصل الوجود الإنساني بالأزل والأبد ، حين يربطه بالله تعالى خالقه ، وبالخلود في الدار الآخرة ، التي هي الحيوان — أي الحياة ـ لو كانوا يعلمون .

والإسلام ـ خاصة ـ له تأثيره العميق والشامل في ثقافة أمتنا العربية والإسلامية . عن طريق عقائده الإيمانية ، وشعائره التعبدية ،

وقيمه الخلقية ،وأحكامه التشريعية ، وآدابه العملية ، ومفاهيمه النظرية .

فهو دين يتغلغل في حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، ويؤثر في الفكر والشعور والإرادة ، ويوجه العقل والضمير والسلوك ، ويصبغ الحياة كلها بصبغة متميزة ، تتجلّى في توجهها الرباني ، ونزوعها الإنساني ،وانضباطها الأخلاقي ، وتحركها الإيجابي ، وتوازنها القيمي .

المسلم يأكل فيسمي الله تعالى ، ويشبع فيحمد الله ، وينام على ذكر الله ، ويستيقظ على ذكر الله ، وتجيئه النعمة فيقول : الحمد لله ، وتصيبه المصيبة فيقول : ﴿إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيه راجِعونَ﴾ [البقرة : ١٥٦] .

وكل حياته معجونة بذكر الله تعالى ، والثناء عليه . فـ «الله» تعالى حي في وجدانه ، حاضر على لسانه .

ومن قريب حضرت مؤتمراً للمسلمين في إيطاليا ، ولقيت مسلماً إيطالياً فعرفت عن سبب إسلامه : أنه وجد مسلماً مغربياً يعمل بائعاً متجولاً في البرد الشديد ، فسأله : ما الذي يوقفك في البرد الشديد ؟ قال : أطلب رزق الله . قال : وهل تكسب ما يكفيك ؟ قال : الحمد لله ، ما أكسبه يكفيني بعضه ، وأرسل الباقي إلى أبويّ وإخوتي في المغرب . قال : وهل أنت مسؤول عنهم ؟ قال : نعم . رضا الله في رضا الوالدين ، وصلة الرحم تطيل العمر ؟ قال الإيطالي : يعني أنت راضٍ عن حياتك هذه ؟ قال : رضاً ، ولله الحمد ، ربنا يديم نعمته عليّ . قال الإيطالي : ومن أين تعلمت هذا ؟ قال المغربي : ديننا علّمنا هذا : «ارضَ بما قَسَم الله لك تكن أغنى الناس» (١) قال الإيطالي : فكيف لي أن عرف دينكم ؟ قال

(١) جزء من حديث رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١٠٠) .

المغربي : أدلّك على المسجد لتقابل إمامه ، وهو يشرح لك ، فأنا رجل أميّ . وذهب الإيطالي مع المغربي إلى المسجد ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلاة أو يرتاد المسجد ، وما هي إلا أيام حتى دخل الرجل في الإسلام ، وحسن إسلامه ، وأصبح من الملتزمين الغيورين الداعين إلى الإسلام .

ولا يستطيع أحد يعيش في المجتمع الإسلامي أن ينكر تأثير الإسلام على ثقافته ، أيّاً كان قدره من التدين ، لأن اللغة نفسها مشحونة بمعاني الدين ، والأمثال العامة المنتشرة بين الناس ممزوجة بالدين ، والأفكار والمشاعر الموجهة للسلوك متأثرة بالدين ، أعني : بالإسلام الذي هو الدين السائد والغالب . حتى الملاحدة والشكاك الذين ظهروا في تاريخ الأمة – على ندرتهم – لا تخطئ تأثير الإسلام على ثقافتهم ، فالإسلام – بتصوراته وقيمه وأفكاره ومشاعره وآدابه – قوة غالبة ، تؤثر على الفكر والشعور والإرادة من الداخل ومن الخارج ، شعر بذلك المرء أو لم يشعر .

وقد أكد الكثيرون ممن عايشوا المسلمين قليلاً أو كثيراً : أن الدين هو المؤثر الأول في حياتهم وسلوكهم ، وإن كانوا من العصاة والمنحرفين عن سواء السبيل .

يقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» : «تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر ، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً . أجل قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء ، ولكن لن ترى مَن يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه

الأساسية كالصلاة في المساجد وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة ، مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به النصارى ، كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وأفريقية . ومن ذلك أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرّنين في الأصفاد ، ومتهمين بأنواع الجرائم ، فقضيت العجب حين رأيتهم – وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات – لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبي ، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه .

«وعلى مَن يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق – التي لم يدرك الأوربيون أمرها إلا قليلاً – أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها . وللدين – ذي التأثير الضئيل فينا – نفوذ عظيم فيهم ، وبالدين يؤثر في نفوسهم ، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين ، منذ الثورة التي ضرجت مصر بالدماء – يعني ثورة ١٩١٩– إلى أن يقول :

«إن الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة ، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقاً .

«فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق . الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالَم به فيما مضى ، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير»[1] .

(١) من كتاب «حضارة العرب» لـ «غوستاف لوبون» تعريب . عادل زعيتر ، ص٤١٧ .

بل أقول : إن الإسلام يعتبر مكوّناً مهماً لثقافة غير المسلم الذي يعيش في المجتمع المسلم ، وهو ينضح على تفكيره ووجدانه وعلاقاته ، شعر أو لم يشعر ، أحب أو كره . وهذا ما جعلني أقول للدكتور لويس عوض عندما زار الدوحة منذ سنوات : إن وجودك في المجتمع المسلم يقتضي أن تكون مسلماً بالثقافة والحضارة ، وإن لم تكن مسلماً بحكم العقيدة والديانة ![1] .

وقد رأينا من إخواننا النصارى العرب الذين لا يجبنون عن التعبير بصراحة عن أثر الإسلام فيهم وفي ثقافتهم مَن تركوا شهادات عادلة على هذه الحقيقة التي نتحدث عنها ، وذلك مثل الشاعر القروي ، ومثل الأستاذ فارس الخوري رئيس وزراء سورية[2] ، ومثل الزعيم السياسي مكرم عبيد في مصر الذي قال : أنا نصراني ديناً ، مسلم وطناً .

ويحق للآخرين أن يقول كل منهم : أنا نصراني ديانة ، مسلم ثقافة وحضارة .

وصلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية ، فكل الثقافات مدينة للأديان في تكوينها وتوجيهها ، سواء أكان هذا الدين سماوياً أم وضعياً ، حقاً أم باطلاً ، كما هو واضح في ثقافات الشرق والغرب .

والثقافة الغربية على سبيل المثال ، هي بنت الديانة المسيحية ، بعقائدها وتصوراتها ، ومواريثها وتقاليدها المختلفة .

وهذا ماسجله الدارسون المتعمقون من الغربيين :

---

(١) انظر : المجلد الثالث من منشورات نادي الجسرة في قطر «قضايا ثقافية» ص ٤٧ .

(٢) انظر : ما نقلناه من رأيه بصلاحية الإسلام وضرورة تحكيم شريعته ، في كتابنا «شريعة الإسلام» ص ٩٦-٩٧ .

يقول «ت . س . إليوت» في تأثير العقيدة المسيحية في الثقافة والحضارة الأوروبية : «في المسيحية نمت فنوننا ، وفي المسيحية تأصلت – إلى عهد قريب – قوانين أوروبا . وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحي . وقد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحة ، ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية ، ويعتمد في معناه على تلك الثقافة» .

ويقول : «ما كان يمكن أن تُخرج ڤولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية . وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحي اختفاءً تاماً . ولا يرجع اقتناعي بذلك إلى كوني مسيحياً فحسب ، بل إنني مقتنع به أيضاً بوصفي دارساً لعلم الأحياء الاجتماعي .

«إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا ، وعندئذٍ ، يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد ، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة . يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب ، ليغذو الضأن ،ليعطي الصوف ، الذي سيُصنع منه رداؤك الجديد ! يجب أن تمر بقرون كثيرة من الهمجية ، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة لا نحن ولا أحفاد أحفادنا ، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا»(١) .

ومثل ذلك يقال في تأثير الهندوسية في ثقافة الهند ، والبوذية في ثقافة الصين وكوريا وغيرهما .

ويمكننا أن نؤكد أنه لا ثقافة بغير دين ، أياً كان هذا الدين .

حتى الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريّاً وعمليّاً ، كالماركسيين ،

---

(١) « ملاحظات نحو تعريف الثقافة» لـ«إليوت» ص١٤٥ ، ترجمة د . شكري عياد ، المؤسسة المصرية العامة .

الذين طاردوه ولاحقوه حيث كان ، وشردوا رجاله ، وأغلقوا معابد ، وحرّقوا كتبه ،لم يسعهم إلا أن يصنعوا للناس ديناً جديداً ، يقوم مقام الدين القديم ، إلهه المادة ، ونبيه ماركس ، وجنّته الشيوعية الموعودة ، وشيطانه الرأسمالية ، إلى آخر ما نعرف من مبادئ وطقوس لهذه الديانة ، التي سمى بعضهم أمثالها : أدياناً بغير وحي !

* *

٢- **اللغة العربية :**

واللغة ـ أي لغة ـ هي المكوِّن الثاني للثقافة ، فهي وعاء العلوم والمعارف جميعاً ، وأداة الإفهام والتعبير العلمي ، والفني والعادي . ووسيلة التأثير في العقل والشعور بأدبها ونثرها وشعرها وحكمها وأمثالها وقصصها وأساطيرها ، وسائر ألوانها وأدواتها الفنية .

والله تعالى خلق الإنسان ، علمه البيان ، سواء أكان بياناً نطقيّاً أم بياناً خطيّاً ، ليفصح عما في ضميره بلسان مبين .

وجعل من آياته اختلاف الألسنة ، كاختلاف الألوان .

وكان لكل لسان ـ أي كل لغة ـ خصائصه ، التي تظهر في ثقافته ، وتؤثر في تفكيره ووجدانه وسلوكه .

وللعربية ـ خاصة ـ تأثير بالغ في ثقافتنا نحن العرب ، لما انفردت به هذه اللغة من مميزات لم تتوافر لغيرها .

وحسبها أن الله أنزل بها كتابه الخالد القرآن : ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُم تَعْقِلُونَ**﴾ [يوسف : ٢] ، ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء : ١٩٣- ١٩٥] .

وإن لغة اختارها الله تعالى لينزل بها خاتم كتبه ، وينطق بها

خاتم رسله ، ويجعلها لغة العبادة لخاتمة رسالاته ، لجديرة أن تكون سيدة لغات العالَمين .

لقد بلغت العربية الذروة حين نزل بها هذا النص الإلَهي الذي أحكمت آياته ، ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير ، ولا يوجد في أي لغة من لغات الأرض نص إلَهي معصوم ، غير محرَّفٍ ولا مبدَّل ؛ إلا العربية ، التي شرَّفها الله بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بعد أن حُرِّفت الكتب السماوية جميعاً ، بالأدلة القاطعة التي بيَّنها العلماء قديماً وحديثاً .

فقد ضمنت العربية الخلود ، حين نزل بها القرآن الذي تكفل الله تعالى بحفظه : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر : ٩] .

وهذا ما جعل لهذه اللغة العزيزة لوناً من القداسة عند العرب المسلمين ، بل عند المسلمين غير العرب ، الذين يجتهدون في تعلمها ما استطاعوا ، ويتقربون إلى الله بنشرها وتعليمها .

وقد حدث اتصال بين اللغة والدين ــ وبعبارة أخرى : بين الإسلام والعربية ــ حتى امتزج أحدهما بالآخر ، امتزاج الروح بالجسد ، فمَن قرأ متن اللغة وشواهدها ، أو نحوها أو صرفها ، وبلاغتها ، ورأى الشواهد والأمثلة فيها ، وجدها ممزوجة بالقرآن مزجاً . وكذلك مَن درس شعرها ونثرها لمس ذلك لمساً .

ومن هنا نجد محاولات بعضهم اليوم تفريغ اللغة من هذه الظواهر الأصيلة فيها ، وعزلها عن القرآن والسُنَّة ، كما ترى ذلك واضحاً في المعجم المعروف باسم «المنجد»[١] الذي تعمد حذف كل استشهاد

(١) تصنيف الأب اليسوعي لويس معلوف .

بالقرآن أو الحديث في أي مادة لغوية .

ولهذا نجد كل مَن يحارب الإسلام يحارب اللغة العربيـة معه ، إذ لا عربية بغير قرآن ، ولا قرآن بغير بيانه من سُنَّة رسوله الكريـم ، الذي أُمِرَ أن يبين للناس ما نُزِّل إليهم .

ولا غرو أن كانت الدعوة إلى العامية بذرة بذرها أعداء الأمة من المستشرقين والمبشرين والأجانب ، ليعزلوها عن الفصحى ــ لغة القرآن والسُّنَّة والتراث الإسلامي كله ــ كما تبين ذلك بالوثائق وأكدته الدراسات الأكاديمية[1] .

وكان من أكبر همّ المستعمرين الصليبيين وفروخهم في كل بلد عربي إضعاف الفصحى ، وإشاعة العامية ، وإعلاء اللغة الأجنبية على اللغة القومية ، كما فعل ذلك «دنلوب» في نظام التعليم بمصر[2] .

وكان أكبر همهم في البلدان الإسلامية التي تكتب لغتها بالحرف العربي إلغاء الحرف العربي من الكتابة ، وإحلال الحرف اللاتيني محله ، كما فعلوا ذلك في تركية وماليزية وبعض البلاد الإفريقية .

وكان همّ الحكم العلماني في تركيا محاولة تفريغ التركية من الكلمات العربية التي تشغل منها حيزاً كبيراً ، لتوضع موضعها كلمات لاتينية ، بدعوى أنها كلمات عالَمية !

وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيحاؤها في نفس

(١) انظر : كتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر» للدكتورة نفوسة زكريا ، وما كتبه الأستاذ محمود شاكر في كتابه «أباطيل وأسمار» عن هذه القضية ، ودعوة سلامة موسى ولويس عوض وأمثالهما إلى العامية ص١٥١- ١٩٤ .

(٢) بيّن الأستاذ شاكر أن هدف «دنلوب» من نظامه التعليمي هو سيادة اللغة الإنجليزية على اللغة العربية . (انظر : «أباطيل وأسمار» ص٥٦٠) .

obeikandi.com

كل مسلم ، كما أنها تُذكِّر أبداً بالقرآن والإسلام ، وتؤكد دائماً روابط الأخوة الإسلامية .

* * *

obeikandl.com

خصائص ثقافتنا

ولا بد ـ لكي نفهم ثقافتنا بحق ـ أن نعرف خصائصها العامة ، التي ميَّزتها عن غيرها من الثقافات . وهذا يحتاج إلى بحث مفرد ، ولكننا نشير هنا إلى رؤوسها تبصرة وتذكرة .

فمن خصائص هذه الثقافة :

الربانية : فهي ثقافة معجونة بالجانب الإلَهي ، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة ، والتوحيد خاصة ، بجوانبها كلها ، وجرت فيها مجرى الدم في الشعيرات ، في شعرها ونثرها ، في أدبها وعلمها وفلسفتها ، في كتب اللغة وكتب الدين ، وكتب العلم ، على اختلافها ، فيما تزيّن به المساجد ، وفيما تجمَّل به المنازل .

قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشكاك ، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها . ومع هذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم ، أحبوا أو كرهوا .

الأخلاقية : وللعنصر الأخلاقي فيها مكان رحيب ، وأثر عميق ، برز ذلك العنصر حتى في الجاهلية ذاتها ، كما نلمسه في شعر حاتم الطائي ، وعروة بن الورد ، وعنترة العبسي[1] ، وغيرهم .

ثم جاء الإسلام ، فعمَّق هذا العنصر أيما تعميق ، ووسّعه أبلغ توسعة ، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى ، وحوافز أنبل وأزكى ، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء ، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ، وحرّرها من غلوّ الجاهلية وغلوائها ، ورفع الأخلاق مكاناً عليّاً حين

---

(١) انظر : بعض أشعار هؤلاء في « ديوان الحماسة» لأبي تمام .

جعلها غاية الرسالة : «إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[1] ، ونندد بالعلم الذي لا يثمر خلقاً ولا سلوكاً حسناً .

وفصَّل آداباً للمعلم والمتعلم ، والقارئُ والسامع ، والباحث والمناظر ، بل آداباً لكل شيءٍ في الحياة ، من أدب المائدة إلى بناء الدولة .

واعتبرت الأخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبد الخالص ، وإلا كان فساد الخُلق دليل فساد الإيمان ، أو فساد العبادة .

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق : أخلاق لمعاملة المسلمين ، وأخرى لغير المسلمين ؛ فالخير خير للجميع ، والشر شر على الجميع ، والحلال حلال للكلّ ، والحرام حرام على الكلّ ، لا كما جاء في توراة اليهود .

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير : أن «الغاية تبرّر الوسيلة» ، بل هي لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة ، ولا تصل إلى الحق بالخوض في الباطل . فإن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيباً .

ومن ثَمَّ لا انفصال في ثقافة الإسلام بين الأخلاق والعلم ، ولا بين الأخلاق والاقتصاد ، ولا بين الأخلاق والسياسة ، ولا بين الأخلاق والحرب .

الإنسانية : ومن خصائص هذه الثقافة : الإنسانية . فلُحمتها وسداها : احترام الإنسان ، ورعاية كرامة الإنسان ، وحقوق الإنسان ، فهي تقوم على اعتبار أن الإنسان «مخلوق مكرّم» من ربه : ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء : ٧٠] ، وأن الله جعله في الأرض خليفة ، وأنه تعالى سخّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه .

---

(١) رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي والبيهقي في الشعب . كلهم عن أبي هريرة . وذكره في صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩) .

obeikandi.com

وهي تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان ، بغضّ النظر عن جنسه أو لونه ، أو لغته أو موطنه ، أو طبقته ، بل عن دينه نفسه ، فهو مكرّم بإنسانيته قبل ديانته . ومن المواقف الرائعة ما رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قد مرت عليه جنازة ميت وهو جالس ، فقام لها واقفاً ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ؟ فقال : «أليست نفساً ؟» بلى ، ولكل نفس في الإسلام حُرْمةٌ ومكان[1] .

العالمية : وما دامت ثقافة لكل إنسان ، فلا غرو أن تكون ثقافة عالَمية المنزع ، والوجهة ، وقد عملت على تقريب الفوارق بين بني الإنسان ، تلك التي فرَّقت البَشر قديماً وحديثاً ، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم ، بيض وسود ، أغنياء وفقراء ، ملوك وسوقة ، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس ، ولا تنافي بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية ، ووصفها بالعالَمية من ناحية أخرى . فهي ــ كما قلنا ــ عالَمية النزعة والوجهة ، مفتوحة لكل الجماعات البَشرية ، غير مغلقة على نفسها ، ولا متعصبة ضد غيرها ، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة ، التي تقوم على تمجيد جنس خاص ، وشعب معين ، حتى وصفت الله سبحانه بأنه «ربّ إسرائيل» ، واعتبرت الشعب الإسرائيلي ــ كجنس ــ شعب الله المختار .

أما ثقافتنا فهي وإن كتبت بالعربية ، وانطلقت من الإسلام ، فالإسلام نفسه عالَمي الرسالة من أول يوم ، جاء يقول : ﴿**يا أَيُّها النَّاسُ**﴾ [البقرة : ٢١] . وغيرها ، لا «يا أيها العرب» ، ويدعو إلى الله ﴿**ربِّ العالَمينَ**﴾ [الفاتحة : ٢] . وغيرها ، لا «رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم» . ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة : ﴿**وما**

(١) انظر : خصيصة الإنسانية من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام» ، طبع مكتبة وهبة ، القاهرة . والرسالة ، بيروت .

أرسَلناكَ إِلاَّ رحمَةً لِلعالَمينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

التسامح : ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة «التسامح» فيها ، برغم ظهور العنصر الديني فيها وغلبته عليها . ولكن الدين الذي قامت عليه ، يؤكد الإيمان بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية ، لتأثيرهما في فكر الإنسان وسلوكه ، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين ، وهما :

الأولى : أن اختلاف البَشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته ، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة الله ويُغيِّر سننه في الكون . يقول تعالى : **﴿ولو شاءَ ربُّكَ لَجعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحدَةً ولا يَزالونَ مُختَلِفينَ * إلاَّ مَن رَّحِمَ ربُّكَ ولِذَلِكَ خلَقَهم﴾** [هود : ١١٨- ١١٩] .

الثانية : أن حسابهم على ما ضلُّوا فيه أو انحرفوا ، إنما هو إلى الله يوم القيامة ، وليس إلى الناس اليوم . وفي هذا يقول الله لرسوله في شأن المخالفين : **﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ واسْتَقِمْ كَما أُمِرتَ ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهم وقُلْ آمَنتُ بما أنزَلَ الله مِن كِتابٍ وأُمِرتُ لأَعدِلَ بَينكم الله ربُّنا وربُّكم لَنا أَعمالُنا ولَكم أعمالُكم لا حُجَّةَ بَينَنا وبَينَكم الله يَجمَعُ بَينَنا وإِلَيه المَصيرُ﴾** [الشورى : ١٥] .

ولهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين ، وفسحت لهم مكاناً في مجتمعاتها ، وأعطتهم ذمة الله وذمة رسوله وذمة جماعة المسلمين ، على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة ، وبقي هؤلاء على عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم ، وبقيت لهم معابدهم ومؤسساتهم ، ولم يُجبروا على شيء يمنعهم دينهم منه ، بل لم يُجبروا على ترك ما يبيحه دينهم لهم

كالخمر والخنزير[1] ، بل شاركوا في بناء الحضارة الإسلامية ، وكان لهم في أحيان كثيرة مناصب وزارية وإدارية ومالية ؛ على خلاف ما تعانيه الأقليات والجاليات المسلمة في كثير من المجتمعات الغربية اليوم ، التي أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل طالبات مسلمات يلتزمن الحجاب الذي فرضه عليهن الإسلام ، وكذلك من أجل فتح كلية أوروبية خاصة للدراسات الإسلامية ، لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة في داخل أوروبا شرقها وغربها .

التنوّع : ومن خصائص هذه الثقافة «التنوُّع» ؛ فهي ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية ، كما يتصور بعضهم . . إنها ثقافة واسعة متنوعة ، فيها الدين بفروعه المتعددة ، واللغة والأدب والفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، والعلوم الإنسانية ، والفنون المختلفة .

فيها فقه أبي حنيفة ، وأصول الشافعي ، وكلام الأشعري ، وتفسير الطبري ، ورواية البخاري ، وأدب الجاحظ ، ومعجم الخليل ، ونحو سيبويه ، وبلاغة عبد القاهر ، وطب ابن سينا ، وشعر المتنبي ، ومقامات الحريري ، وبصريات ابن الهيثم ، ورياضيات البيروني ، وتصوف الغزالي ، وفلسفة ابن رشد ، وتحليل ابن خلدون ، وخط ابن مقلة ، وألحان الموصلي .

فيها ابن طفيل من الأندلس ، وابن أبي زيد من تونس ، وابن حجر من مصر ، وابن الوزير من اليمن ، والشيرازي من إيران ، والزمخشري من خوارزم ، والدهلوي من الهند ، وجلال الدين الرومي من تركيا .

---

(١) انظر : كتابنا «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» ، فصل «تسامح فريد» ص٤٧-٥٥ ، طبع مكتبة وهبة - الطبعة الثالثة .

فيها صلاح أهل السلوك ، وخلاعة أهل البطالة .
فيها «نهج البلاغة» ، و«ألف ليلة وليلة» .
فيها زهديات أبي العتاهية ، وخمريات أبي نواس .
فيها مرثيات الخنساء ، ومجون ابن أبي ربيعة .
فيها سلفيّة ابن تيمية ، وصوفية ابن عربي .
فيها ظاهرية ابن حزم ، ومقاصدية الشاطبي .
فيها عقلانية الفلاسفة ، والتزام الفقهاء .
فيها اجتهاد المجددين ، وتزمّت المقلدين .
فيها الفِرَق المختلفة من أهل المِلّة ، والفرق المنشقّة عن المِلّة .
فيها الكتب المقروءة التي امتلأت بها المكتبات ، والصور المشهودة التي ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور (الأموي في دمشق ، والحمراء في الأندلس ، والأزهر في مصر ، والسلطان أحمد في استانبول ، وتاج محل في الهند) .

إنه التنوّع الشامل أو الشمول المتنوّع .

الوسطية : يكمل خصيصة «التنوع» خصيصة أخرى هي «الوسطية» أو «التوازن» . فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط ، للأمة الوسط ، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها . ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها ، إلا أن الصبغة العامة لها ، والطابع الغالب عليها هو الوسطية ، التوازنية ، المستمدة من وسطية الإسلام ، ووسطية أُمَّته : ﴿**وكَذَلِكَ جَعَلناكم أُمَّةً وَسَطاً**﴾ [البقرة : ١٤٣] .

تجد هذا واضحاً في الوسطية المتوازنة : بين العقل والوحي ، بين العلم والإيمان ، بين المادة والروح ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفردية والجَماعية ، بين الإلهام والالتزام ، بين النص والاجتهاد ، بين

المثال والواقع ، بين استلهام الماضي والتطلع إلى المستقبل .

التكامل : ومن خصائص هذه الثقافة أيضاً : التكامل ، التكامل فيما بين بعضها وبعض ، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية ، وهذه تغذّي الثقافة الإنسانية ، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية .

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى ، فهي لا تدعي أنها تنشئ كل شيء من عدم ، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر ، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة ، مكملة للبناء الذي بدأه رسل الله من قبل ، مصححة للمسيرة التي داخلها بعض التحريف أو الانحراف . ولهذا قال رسولها عليه الصلاة والسلام : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، فهو متمِّم لا مبتدئ ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا ، بل هي موجودة ، وإن كان فيها قصور وتناقص ، ومهمته أن يتممها ويكملها .

وموقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد ﷺ مع النبوات الأخرى ، والذي عبّر عنه الحديث الصحيح : «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاّ وُضِعت هذه اللّبنة ؟! فأنا اللّبنة ، وأنا خاتم النبيين»(1) .

ومقتضى هذا التكامل الذي اتصفت به الثقافة الإسلامية ، أنها لا تجد مانعاً شرعياً يمنعها من اقتباس الحكمة ، والتماس العلم النافع ، والعمل الصالح عند غيرها ، ولو كانوا خصومها .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه : «الكلمة الحكمة

---

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، كما في (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) ، حديث رقم (١٤٧٣) .

ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها»[1] ، والحديث ضعيف من حيث سنده ، ولكن معناه صحيح ، بإجماع علماء الأمة . وهو ما استقر عليه الفقه والعمل .

وقد طلب الرسول الكريم من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة ، ولم يتيسر لهم دفع الفدية في غزوة «بدر» أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوا ، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحي ، وأحد علماء الصحابة رضي الله عنهم[2] .

* * *

(١) رواه الترمذي في أبواب العلم عن أبي هريرة (٢٦٨٨) وقال : حديث غريب ، وذكر أن فيه راوياً يضعّف في الحديث من قِبَل حفظه . ورواه ابن ماجه في الزهد (٤١٦٩) .

(٢) رواه ابن سعد عن الشعبي مرسلاً ، كما في الطبقات : ١/٢٢ ، طبع بيروت .

obeikandl.com